«ارتفعت كالأرز في لبنان»

(سي ٢٤/١٣)

الأخت باسمة الخوري

مقدمة

يعود سفر يشوع بن سيراخ الى حوالي السنة ١٩٠ ق. م.، وهو كتاب يعكس وضعاً ثقافيّاً واجتماعيّاً يتمثل بتعلق الكثيرين من اليهود بالحضارة الهلينستيّة، بحيث بدأوا يتساءلون حول جدوى التعلّق بالدين اليهودي، في حين أنّ الحكمة اليونانيّة قادرة على توفير السعادة الوافرة.

يأتي هذا السفر ليركز على هدفين اثنين: الأوّل، تأكيد على أنّ الحكمة اليهودية هي الحكمة الحقة، والثاني، تأكيد على أن الدين اليهودي يولد الفرح والسعادة. فالكاتب يعالج موضوعاً واحداً، هو الحكمة بكافة أبعادها: مصدرها، عيشها في الحياة اليوميّة، علاقتها بشريعة اللّه، الخ، بحيث نفهم أنّه يريد التأكيد أن لا حكمة إلاّ في اسرائيل.

سيراخ ٢٤: كلام حكيم في رمز الحكمة!

في قلب ما كتب بن سيراخ عن الحكمة، يأتي الفصل ٢٤، وهو خطاب تمتدح فيه الحكمة نفسها. يتألف هذا الفصل من مقدمة موجزة: «الحكمة تمتدح نفسها، وتفتخر بين شعبها، تفتح فمها في جماعة العلي، وتفتخر أمام قدرته» (سي ٢٤: ١-٢). تأخذ الحكمة بعدها الكلام (٢٤: ٣-٢٢)، ثمّ يفسّر ابن سيراخ الخطاب (٢٤: ٢٣-٢٩)، وتنهي الآيات ٣٠-٣٤ الفصل بوصف دور يشوع بن سيراخ.

إن الحكمة التي يصفها بن سيراخ تتكلم في الهيكل أثناء الصلاة الجماعيّة وأمام القدرة الإلهيّة. هنا فقط يستطيع الناس سماعها والتعرف اليها. إنّها حكمة دينيّة في جوهرها.

في سي ٢٤: ٣-٢٢ تخبر الحكمة قصتها بحسب جدول مكاني في خط عامودي ينطلق من السماء الى أرض اسرائيل: «من فم العلي خرجت... فتثبتت في صهيون إقامتي» (٢٤: ٣ و١٠)، وفي خط أفقي يجمع بين البحر واليابسة (٢٤: ٦)، بناء على تدخل اللّه أوّلاً وآخراً (٢٤: ٣ و٨)، وفي ذلك وصف لامتداد الحكمة المسكوني، بحيث تزور الكون كلّه كما يزورها مالكها. لكن سلطة هذه الحكمة لا تنبع من ذاتها بل من إرادة اللّه الذي أمرها بالاستقرار في اسرائيل (٢٤: ٨). تلك هي قصة أصل الحكمة النابعة من اللّه.

وتأتي الآية التاسعة لتنقلنا من المكان الى الزمان: «من البدء خلقني ومن الأزل، وأنا الى الأبد لا أزول». فيكون زمن الحكمة هذه أزليّاً أبديّاً، لا نعرف له بداية ولا نهاية. وهنا يأتي وصف الحكمة لذاتها وتوسعها الجغرافي. صحيح أن الحكمة هي العبادة الحقة، تخدم اللّه في هيكله، وقد استقرّت فيه، ومملكتها هي أورشليم (٢٤: ١٠)، لكنها ليست محدودة بهذه المدينة أو تلك، لأنها أكبر وأعظم من أن تحدّ بمكان. أمّا حجم عظمتها فتخبر عنه الحكمة في الآيات ١٣-١٧:

كالأرز في لبنان ارتفعت
كالسرو في جبال حرمون
كالنخل في عين جدي ارتفعت
وكغراس الورد في أريحا
كالزيتون النضير في السهل
وكالدلب ارتفعت

تؤلّف هاتان الآيتان مقطعاً واحداً مبنيّاً كالتالي: اسم الشجرة، اسم مكان، فعل واحد.

تردد الحكمة على ثلاث مراحل أنها **ارتفعت**، وتشبّه ارتفاعها بست شجرات. أمّا الشجرات الست فهي على التوالي: أرز لبنان، السرو، النخل، غراس الورد،

الزيتون والدلب، وجميعها شجرات مميزة بجمالها، عدا غرسة الورد المميزة على كل الأصعدة. وأمّا الأمكنة الخمس فهي على التوالي : لبنان، حرمون، عين جدي، أريحا، السهل، وهي – باستثناء لبنان – تشكل أطراف الأرض المقدسة. فحرمون هو حدود اسرائيل الشماليّة، وعين جدي وأريحا هما شرقها، في حين أن السهل هو غرب هذه الأرض. لقد ارتفعت الحكمة لتغطي كل أرض اسرائيل من أقصاها الى أقصاها. ولكن لماذا يشكل أرز لبنان استثناء في هذه اللائحة؟ ولماذا تبدأ هذه اللائحة للشجر والأمكنة بأرز لبنان؟

الأرز وعظمته في حزقيال ٣١:٣-٩

للاجابة على هذه الأسئلة يمكننا العودة الى النبي حزقيال ٣١:٣-٩ حيث نجد وصفاً دقيقاً لشجرة الأرز، تجعلنا نفهم سبب ادخالها في رأس قائمة الأشجار التي تفخر الحكمة بالتشبه بها. ففي معرض وصفه لعظمة فرعون مصر الخياليّة، يشبهّه الرب **بأرزة في لبنان**: «بماذا أشبهك في عظمتك؟ أشبهك **بأرزة في لبنان**» (حز ٣١:٣)؛ فنفهم بالتالي كيف أنه لا يجوز تشبيه العظمة ذاتها الا بهذه الشجرة الكاملة الصفات، حتى أن القديس نفسه يمكنه أن يتأمّل بأن تكون العظمة من نصيبه، «مثل أرز لبنان ينمو» (مز ٩٢:١٣).

بالعودة إلى الحكمة التي تمدح ذاتها، نحن نرى أن الكاتب أراد إبراز ميزتين أساسيتين :

– العظمة : وهذا ما يجده في ميزات أرز لبنان.

– الشمولية انطلاقاً من أرض اسرائيل: وهذا ما يجده في العودة الى أهم أشجار اسرائيل المتواجدة في كل أرضها.

فلو اكتفى الكاتب بامتداح الحكمة لذاتها، من خلال التشبه بأشجار عظيمة تعرفها بلاد اسرائيل جيّداً، من شرقها الى غربها، ومن شمالها الى جنوبها، لكانت بقيت صفات عظمتها منقوصة. إن أرز لبنان هو مثال العظمة التي لا يضاهيها حتى «أرز جنّة اللّه»، هي التي تصل الى السماء (حز ٣١:٨)؛ لكنّها تتعدّى الجمال الخارجي، «جميلة الأغصان وارفة الظلال، عالية، رأسها بين الغيوم. المياه جعلتها تنمو، والينابيع أطالت قوامها» (حز ٣١:٣)، الى القوّة والسلطة على كلّ مثيلاتها، هي «التي شمخت فوق جميع أشجار الغابة» (حز ٣١:٥)، والتي «لا يماثلها في الحسن كل شجر في جنّة اللّه... فغارت منها جميع الأشجار في عدن، في جنّة اللّه» (حز ٣١:٨-٩). الى ذلك تحمّل أرزة لبنان مسؤوليّة كونيّة تشمل الطير والحيوان والانسان، «في أغصانها عششت كل طيور السماء، وتحت فروعها ولدت كل وحوش البريّة، وفي ظلها سكنت جميع الأمم العظيمة» (حز ٣١:٦)، والنبات أيضاً هو من مسؤوليتها: «وأجرت من حولها أنهاراً تفرّعت الى جداول تروي جميع أشجار الغابة» (٣١:٤).

إن نظرة الدهشة التي كان الشعب اليهودي ينظرها الى أرزة لبنان تجعلنا نفهم تشبيه الحكمة بهذه الشجرة، بحيث أنّه كان بإمكان الكاتب أن يكتفي بالقول إن الحكمة **ارتفعت كالأرز في لبنان**، لكنّه أراد تفسير ذلك لمن لا يعرف مدى عظمة شجرة الأرز التي «لا يتفوق عليها الأرز في جنّة اللّه» (حز ٣١:٨)، فأكمل «كالسرو والنخل والدلب وغراس الورد والزيتون والدلب»، وكأنّه بحاجة الى مجمل ارتفاع هذه الشجرات، والى مجموع مميزات أشجار اسرائيل، ليعادل ارتفاع أرز لبنان ومميزاته: «أين للسرو مثل أغصانها، وللدلب مثل فروعها؟» من هنا يمكننا تفضيل ترجمة جمعيّة الكتاب المقدس في لبنان التي تعتمد: «شمخت كأرزة في لبنان أو كسروة في جبل حرمون...» إن شموخ أرزة لبنان ليس شموخاً جماليّاً وحسب، بل شموخ صعود أمام نوائب الدهر، وشموخ من يتحمّل مسؤوليّة تجاه الكائنات التي تحيا في كنفها.

شموخ الحكمة كالأرز حسب سيراخ

إن ما تقدّم هو ما يشدد عليه ابن سيراخ في دفاعه عن الحكمة في تقليد اسرائيل وفي اظهار عظمة هذه الحكمة. فليس على اليهودي إذاً أن يخجل من حكمته، فيسعى وراء حكمة غريبة عن تراثه، بل أن يفتخر ويشمخ بحكمته التي تملك مواصفات أرزة لبنان، والتي امتدت الى كلّ أرض اسرائيل، بعدما أتت من لدن العلي الذي أمرها بالسكن في صهيون. هذه الحكمة ليست إلا تجلي اللّه لشعبه في أورشليم ومنها الى كل الأرض، وقد قام بهذه البادرة ليُحيي الكون بأسره عامودياً وأفقياً كما أرزة من لبنان. فلا بأس إن شمخت حكمة ما، لأنها مهما علت ونمت، فهي لن تعادل بأي حال من الأحوال عظمة الحكمة الالهيّة وشموليتها؛ ولنا في ذلك مثل الشجر المميز الذي مهما علا وعظم يبقى بعيداً جداً عن شموخ وعظمة وصمود أرزة لبنان.

لقد رأت الليتورجيا في هذه الآية، «ارتفعت كالأرز في لبنان»، صورة العذراء مريم أم الحكمة الالهيّة، وقد سمّاها اللبنانيون أرزة لبنان.